

العطاء

عناصر الموضوع

٣٣٠	مفهوم العطاء
٣٣١	العطاء في الاستعمال القرآني
٣٣٢	الأنفاذ ذات الصلة
٣٣٤	العطاء الإلهي
٣٣٩	أنواع العطاء الإلهي
٣٤٢	مجالات العطاء
٣٤٥	مبطلات العطاء
٣٤٨	ثمرات العطاء على الفرد والمجتمع

مفهوم العطاء

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (عطو) تدل على أخذ ومناولة، فالعطو: التناول باليد، ومنه اشتق الإعطاء، والمعاطاة: المناولة^(١).

والعطاء والعطية: اسم لما يعطى، والجمع عطايا وأعطية، وأعطيات جمع الجمع، والاسم العطاء^(٢).

قال الراغب: «والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]. واختص العطية والعطاء بالصلة، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن العربي: «حقيقة العطاء: هي المناولة، وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن كل نفع أو ضرر يصل من الغير إلى الغير»^(٤).

وقال المناوي: «العطاء: التناول، والمعاطاة: المناولة، لكن استعملها الفقهاء في منالة خاصة»^(٥).

يتبين مما سبق أن المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٥٤/٤.

(٢) لسان العرب ٦٩/١٥.

(٣) المفردات ص ٥٧٢.

(٤) أحكام القرآن ٤٠٥/٤.

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٤٣.

العطاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عطو) في القرآن الكريم (٢٣) مرة^(١).
والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿قَامَا مَنْ أَعْطَى وَآتَى﴾ [الليل: ٥]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]
المصدر	٥	﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ [هود: ١٠٨]

وجاء (العطاء) في الاستعمال في القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الإعطاء والإنالة والمناولة^(٢)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٦٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرزق:

الرزق لغة:

الرزق: مصدر رزق يرزق رزقاً «فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم» وجمعه أرزاق، والرزق: العطاء، وقد يسمى المطر رزقاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن السَّمَاءِ رِزْقًا فَآخِذُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٥] (١).

الرزق اصطلاحاً:

الرزق: هو العطاء الجاري تارةً دنيوياً كان أم آخروياً، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علماً (٢).

الصلة بين الرزق والعطاء:

نجد أن الرزق عند أهل اللغة مجتمع على أنه ما بين العطاء وما ينتفع به مما يؤكل.

٢ الجود:

الجود لغة خلاف البخل (٣)، وجاد الرجل بماله يجود جوداً بالضم، فهو جوادٌ، وقيل: الجواد هو الذي يعطي بلا مسألة؛ صيانة للأخذ من ذل السؤال (٤).

الجود اصطلاحاً:

قال الجرجاني: «الجود صفة، هي مبدأ إفادة ما ينبغي لا بعوض» (٥).
وقيل: هو «صفةٌ تحمل صاحبها على بذل ما ينبغي من الخير لغير عوض» (٦).

الصلة بين الجود والعطاء:

الجود كثرة العطاء من غير سؤال، من قولك: جادت السماء، إذا جادت بمطر غزير (٧).

٣ البذل:

- (١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/١١٥، مختار الصحاح، الرازي ١/١٢١.
- (٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥١.
- (٣) مجمل اللغة، ابن فارس ص ٢٠٢.
- (٤) انظر: الصحاح في اللغة، الجوهري ٢/٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٤٨٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/٧٨٤.
- (٥) التعريفات ص ٧٩.
- (٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ١٤٦.
- (٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٥٣.

البذل لغة:

بذل الشيء: أعطاه وجاد به، والبذل نقيض المنع، وكل من طابت نفسه لشيء فهو باذلٌ، ورجلٌ بذال، وبذول: إذا كثر بذله للمال. يقال: بذل له شيئاً، أي: أعطاه إياه^(١)

البذل اصطلاحاً:

قال المناوي: «البذل: الإعطاء عن طيب نفس»^(٢).

الصلة بين البذل والعطاء:

يظهر من تعريف البذل أنه إعطاء عن طيب نفس، وعليه فالعطاء أعم.

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ١٨٧، تهذيب اللغة، الأزهرى ١٤/ ٣١٢، مختار الصحاح، الرازي ص ٣١.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣.

العطاء الإلهي

تحدث القرآن الكريم عن العطاء الإلهي، وتكمن محاور هذا الحديث في النقاط الآتية:

أولاً: تفرد الله عز وجل بالعطاء:

قال تعالى عن موسى عليه السلام وهو يصف عطاء الربوبية: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام قال في رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي أعطى كل مخلوق من مخلوقاته، وكل شيء من الأشياء، الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعة ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمدّه بالوسائل والملكات التي تحقق هذه الوظيفة.

فالله عز وجل أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به^(١).

والله سبحانه هو المتفرد وحده بالعطاء، فهو الذي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه في معاشهم، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، كما أعطى كل نوع من

أنواع خلقه الصورة التي تناسبه، والشكل الذي يتناسب مع جنسه.

ثانياً: العطاء الدنيوي:

عطاء الله لا يحصى ولا يعد، وفي هذه الأسطر يتم الحديث عن أهم العطاء الدنيوي للإنسان.

١. نعمة الخلق.

قال تعالى: ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

من أعظم النعم التي أنعم الله عز وجل بها على الإنسان نعمة الخلق، ففي الآيتين السابقتين يذكر الله عز وجل الإنسان بأنه جاء عليه وقت غير محدد من الزمان، لم يكن هذا الإنسان في ذلك الحين من الدهر شيئاً مذكوراً من بين أفراد جنسه، وإنما كان شيئاً غير موجود إلا في علم الله عز وجل، ثم أوجده سبحانه بعد ذلك من نطفة فعلة فمضغة، ثم أنشأه سبحانه بعد ذلك خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين^(٢).

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

في هذه الآية يذكر الحق تعالى الإنسان

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٥٢٥/٣، معالم التنزيل، البغوي ٢٨٩/٨.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣١٦/١٨، الكشاف، الزمخشري ٦٧/٣.

المخاطبين في هذه الآية بما تفره عقولهم، إذ أنهم كانوا يقرون في ضمائرهم، ويقتنعون بقلوبهم أن الرازق هو الله وحده، ولا رازق غيره، والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار، وغير ذلك مما تخرجه الأرض^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

قال الألوسي: «الدابة اسم لكل حيوان ذي روح، ذكرًا كان أو أنثى، عاقلاً أو غيره، مأخوذ من الدبيب وهو في الأصل المشي الخفيف»^(٤).

والمعنى: وما من شيء يدب على الأرض، إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه، فضلاً منه سبحانه وكرماً على مخلوقاته. وقدم سبحانه الجار والمجرور «عَلَى اللَّهِ» على متعلقه وهو ﴿رِزْقُهَا﴾؛ لإفادة القصر، أي: على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها^(٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أي: إن الله عز وجل هو الرزاق ولا رازق

كيف خلقه من نطفه عندما كان في أول أمره، ثم خلق النطفة في الرحم، وتطورت تلك النطفة إلى أن أخرجه بشراً سوياً، أخرجه رجلاً كاملاً^(١).

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

أي: هو الخالق لكل شيء في هذا الكون، وهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد، القهار لكل ما سواه، والغالب لكل من غالبه^(٢).

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٩٩].

وغيرها من هذه الآيات.

٢. الرزق.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الصَّلَاحُ فَاِنَّ نَصْرَ قُوَّتٍ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

في هاتين الآيتين محاجة للمشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر، والاستفهام في الآية تقرير، من فوائده إلجاء المشركين

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص ١٢٥٧.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٠٨/٥.

(٣) انظر: تفسير الوسيط، الزحيلي ٩٦٨/٢.

(٤) روح المعاني، ٢٠٣/٦.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/١٢.

سواه، وكل رزق إنما هو رازقه، وما من عطاء إلا وهو الذي أعطاه^(١).

[انظر: الرزق: حقيقة الرزق وتنوع صورته]

ثالثاً: العطاء الأخروي:

هناك آيات تحدثت عن عطاء الله عز وجل في الآخرة، في حق النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء بشكل عام، وفي حق المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾^(٢) **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** [الضحى: ٥-٤].

يشير الحق تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن الدار الآخرة وما أعده الله له فيها من نعيم لا يحيط به وصف، خير له من دار الدنيا التي أعطيناه فيها ما أعطيناه فيها من نبوة وكرامة ومنازل عالية، وخلق كريم، وفضلاً عن كل ذلك فسوف يعطيه ربك من خيري الدنيا والآخرة كل ما يسعدك ويرضيك من نصر عظيم، وفتح مبین، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يدك، وعلى أيدي أصحابك الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى، كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة؛ وبذلك يرضى رضاء تاماً بما

أعطاه سبحانه من نعم ومنن^(٣).

وجيء بحرف الاستقبال في قوله تعالى: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾**؛ لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع، وحذف المفعول الثاني في قوله: **﴿يُعْطِيكَ﴾**، ليعم كل وجوه العطاء التي يجيها صلى الله عليه وسلم، أي: ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاماً، والتعبير بقوله **﴿فَتَرْضَىٰ﴾** المشتمل على فاء التعقيب؛ للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع، وأنه سيأتي إليه صلى الله عليه وسلم في وقت قريب، وقد أنجز سبحانه وعده^(٤).

قال الجمل: « وقوله: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾** هذا وعد شامل لما أعطاه الله تعالى له من كمال النفس، وظهور الأمر، وإعلاء الدين واللام لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، أي: ولأنت سوف يعطيك ربك، وليست لام القسم، لأنها لا تدخل على المضارع، إلا مع نون التوكيد^(٥) وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾** [الكوثر: ١].

الكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، ومعناه: الشيء البالغ في الكثرة حد الإفراط، والعرب تسمي كل شيء كثر

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩٣/٣١، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/٤٥٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/٤٩٠.

(٤) حاشية الجمل على الجلالين، ٤/٥٥١.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٣.

تحدث عما أعده الله عز وجل لأنبيائه أيضًا. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٨].

أي: ومن جملة من أنعم الله عليهم، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبتناهم واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا، فهنا نرى أن الله تعالى قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها: أعمالهم الصالحة، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها، ومنها: كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار، ومنها أنهم ممن هداهم الله تعالى واصطفاهم لحمل رسالته^(٤).

وقد بين سبحانه في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولاً، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝﴾ [النساء: ٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله بالانقياد لأمره ونهيه، ويطع الرسول في كل ما جاء به من ربه فأولئك المطيعون مع الذين أنعم الله عليهم

عدده، وعظم شأنه: كوثرًا، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. أي: بشيء كثير^(١).

قال الإمام القرطبي مالمخصه: «واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً: الأول: أنه نهر في الجنة، الثاني: أنه حوض للنبي صلى الله عليه وسلم في الموقف يوم القيامة، الثالث: أنه النبوة والكتاب، الرابع: أنه القرآن، الخامس: الإسلام، ثم قال- رحمه الله- قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه^(٢).

وافتح سبحانه الكلام بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المعطى شيء عظيم، أي: إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا- أيها الرسول الكريم- الكوثر، أي: الخير الكثير الذي من جملة هذا النهر العظيم، والحوض المطهر، فأبشر بذلك أنت وأمتك، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك في شأنك^(٣).

وفي موضع آخر نجد التعبير القرآني قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/٦٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/٢١٦.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٨٠٦، إيجاز البيان، النيسابوري ٢/٨٩٣.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٦/١٢٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٦.

تفعل ذلك كثيرًا، وتأويل ذلك: وأما الذين سعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض»^(٢).

فالذين سعدوا هم أهل السعادة، وهم أتباع الرسل، فأما هم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، مدة دوام السماء والأرض، بمشيئة الله تعالى، عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية^(٣).

بالنعم التي تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها، وأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، يكونون يوم القيامة في صحبة الأنبياء الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين فبلغوا رسالته ونالوا منه سبحانه أشرف المنازل^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَيَا خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ [هود: ١٠٨].

قال الطبري: «قال أبو جعفر: واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والحجاز والبصرة وبعض الكوفيين: «وأما الذين سعدوا»، بفتح السين، وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾، بضم السين، بمعنى: رزقوا السعادة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان فبأيهما قرأ القارئ فمصيب الصواب، فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿سَعِدُوا﴾، فيما لم يسم فاعله، ولم يقل: «أسعدوا»، وأنت لا تقول في الخبر فيما سمي فاعله: «سعدته الله»، بل إنما تقول: «أسعدته الله»؟

قيل: ذلك نظير قولهم: «هو مجنون» و«محبوب»، فيما لم يسم فاعله، فإذا سموا فاعله قيل: «أجته الله»، و«أحبه»، والعرب

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١١٦.

(٢) جامع البيان، ١٥/ ٤٨٧.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٧٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٢/ ٥٨٠.

خلقه في الدنيا ممنوعا عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصا عند ربك للمتقين»^(١).

فالعطاء هنا هو تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه وقضاء الله وقدره، وإن الله تبارك وتعالى يمد بعطائه في الدنيا أهل طاعته، وأهل معصيته، حتى الكافرين به والجاحدين له، فهذا النص يفسر الظاهرة المشهودة في دنيا الناس، فبين أن الله تبارك وتعالى يمد عباده بالعطاء غير المحظور، أي: الذي لا تستطيع منعه قوة غير قوة الله. فهو يمد أهل الدنيا الذين يريدون العجلة، ولكن مالهم في الآخرة من نصيب، بل لهم فيها العذاب جزاء كفرهم وعصيانهم، ويمد بعطائه طلاب الآخرة، ويدخر لهم العطاء الأجل الأعظم يوم القيامة، فيمنحهم بذلك عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، فضلا منه وكرما^(٢).

أما عطاء الدنيا فمشمول بقانون الابتلاء، الذي يخضع له المؤمنون والكافرون على سواء، وأما عطاء الآخرة فهو عطاء الفضل العظيم، الذي يحرم من يحرم منه ضمن

أنواع العطاء الإلهي

ينقسم العطاء الإلهي إلى قسمين، عطاء عام لجميع الخلائق، وعطاء خاص يكون لبعض الناس كالأنبياء والمرسلين والمؤمنين، وسيتم الحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: العطاء العام:

وهذا العطاء يكون للخلائق جميعاً.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا نُمَدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

قال الطبري: «يمد ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مأبهم.

﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ يقول:

وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من

(١) جامع البيان، ١٧/٤١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/٦٢.

قانون الجزاء.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَعَلَى الْجَنَّاتِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ [هود: ١٠٨] ﴿غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ أي: غير مقطوع، والجذ في اللغة القطع^(١).

وقد زاد الله في فضله وإكرامه، فسمى هذا العطاء أجراً، مع أنه في الحقيقة والواقع من محض فضله وجوده، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع^(٢).

ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦].

ثانياً: العطاء الخاص:

ومن ذلك:

١. تسخير الرياح والجن لسليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ﴿لَا يَأْتِيَنَّ لِأَحَدٍ مِن بَيْنِيْ وَبَيْنِكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧] و«آخرين» مقررين

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٤/٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٠/٢٤٠.

فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٥-٣٩].

من العطاء الخاص لسليمان عليه السلام أن الله تعالى سخر له الريح تجري بأمره حيث يريد؛ لأنها تحمل بساطه أو سفينة الهوائية التي غدوها شهر ورواحها شهر ﴿رُخَاءً﴾ أي: لينة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد، كما سخر له شياطين الجن منهم البناء الذي يقوم بالبناء للدور والمصانع، ومنهم الغواص في أعماق البحر لاستخراج اللآلئ، ومنهم من إذا عصاه وتمرد عليه جمع يديه إلى عنقه بصفد ووضعه تحت الأرض.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: أعطيناه ما طلب منا وقلنا له: هذا عطاؤنا لك ﴿فَامْنُنْ﴾ أي: أعط ما شئت لمن شئت وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب منا عليك، وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع^(٣).

٢. استجابة دعوة زكريا عليه السلام برزقه الولد.

وكذلك في دعاء نبي الله زكريا عليه السلام فحقق الله مطلبه وأعطاه ما يتمناه في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَرَأْيِكَ وَكَأَنَّتْ أَمْرَاقِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرْثِي وَيَرْثِي مِنِّي عَالٍ يَعْفُو عَنِّي وَاجْعَلْهُ

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥٧/١٢.

قال تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاةٌ حِسَابًا﴾
[النبا: ٣٦].

بعد أن سرد الله عز وجل ما أعدّه لعباده المتقين من نعيم، يبين أن هؤلاء المتقين كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل العطاء، أي: الإحسان والتفضل، حتى شعبوا واكتفوا، فقولته: ﴿حِسَابًا﴾ صفة للعطاء وهو بمعنى كاف، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، من قولهم: أحسبه الشيء، إذا كفاه حتى قال حسبي، أي: كافيني^(٢).

قال الزمخشري: «و﴿حِسَابًا﴾ صفة بمعنى كافياً، من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال: حسبي، ويصح أن يكون قوله حساباً معناه محسوباً، أي: كافأهم الله تعالى على أعمالهم الحسنة في الدنيا مكافأة محسوبة، على قدر أعمالهم الطيبة»^(٣).

رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبْتَرُكَ بِغُلَامٍ
أَسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا [مريم: ٥-٧].

يجتهد زكريا عليه السلام في الدعاء بأن يرزقه الله الولد، لا من أجل شهوة دنيوية، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه في علمه ونبوته، ويكون مرضياً عنده عز وجل، والمعنى: وإني - يا إلهي - قد خفت ما يفعله أقاربي ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ أي: من بعد موتي، من تضييع لأموال الدين، ومن عدم القيام بحقه.

﴿وَكَاَنَتْ أَمْرًا نِّعَافًا﴾ لا تلد قط في شبابها ولا في غير شبابها.

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولداً من صليبي، هذا الولد يرثني في العلم والنبوة ويرث أيضاً من آل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة، واجعله يارب رضيعاً.

وفي قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ اعتراف عميق بقدرة الله تعالى؛ لأن مثل هذا العطاء لا يرجي إلا منه عز وجل، بعد أن تقدمت بذكرها السن، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة^(١).

٣. عطاء المؤمنين في الآخرة.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٥/٣٠.

(٣) الكشف، ٦٩٠/٤.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤٩/١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢١١/٥.

مجالات العطاء

تتنوع المجالات التي يشملها العطاء، ففي هذا المبحث سنتطرق إلى أهم المجالات التي يدخل فيها العطاء في النقاط الآتية:

أولاً: النفس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

تدل على أن هناك صفقة - عملية شراء وبيع - وإن كان هذا ملكا لله، فالله هو المشتري، والله هو البائع، فلا بد أن لهذا الأمر رمزية، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفيه، فقد يصح أن يكون عندي شيء وأنا ولي على یتيم، فأشتري هذا الشيء بصفتي، ثم أبيع به بصفتي الأخرى، فالشخص الواحد يكون هو الشاري وهو البائع.

فكان الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشتري»، وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق ﴿بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾

هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولا يبلى، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله، وهكذا يكون الثمن غالباً^(١).

قال أبو السعود: «الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية. ثم جعل المبيع - الذي هو العمدة والمقصد في العقد - أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن - الذي هو الوسيلة في الصفقة - الجنة.

ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال: إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها، إذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم، ثم إنه لم يقل «بالجنة» بل قال: ﴿بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، فكأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم، المختصة بهم^(٢).

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٥٠٩.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٠٥.

وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

وبعض البخلاء بعطاء العلم إذا بذلوا منه شيئاً فإنما يبذلون منه بقدر، كأنهم يخشون النفاق، مع أن المعارف والعلوم تربو بالعطاء، فهي تزيد ولا تنقص؛ إلا أن دافع البخل في نفوسهم يجعلهم يضمنون حتى في الأمور التي تزيد ولا تنقص، فسوابق أوهام نفوسهم - التي سيطر عليها أن العطاء ينقص من الأشياء التي يمتلكونها - هي التي جعلت نفوسهم تمتنع عن عطاء العلم وتبخل به، دون أن تنير أجواء نفوسهم المظلمة بصيرة واعية، أو تخفف من غواء أنايتهم الضيقة أخلاق كريمة فاضلة (٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

أي: إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدي إلى الرشd، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس في كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ أي: ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة

ومن الأمور العظيمة في هذا المجال من العطاء هو إيثار الغير على نفسك مصداقاً لقول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَرُونَ مِنْ حَاجِرِ الْبَيْتِ وَلَا يُجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والإيثار معناه: أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، على سبيل الإكرام والنفع. والخصاصة: شدة الحاجة، وأصلها من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات، أي: إن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون في النفع لإخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كانوا في حاجة ماسة، وفقر واضح إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين (١).

ثانياً: العلم:

المعطاء في هذا المجال هو الذي لا يدخر عنده علماً ولا معرفة عمن يحسن الانتفاع بذلك، والبخيل هو الذي يحتفظ بمعارفه وعلومه لنفسه، فلا ينفق منها لمستحقيها، ضناً بها ورغبة بالاستئثار.

قال تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤٣٤/١٩، لباب التأويل، الخازن ٢٧١/٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردی ٢١٤/١.

والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكرتمانهم لما أمر الله بإظهاره^(١).

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كامل الخلق، ومن كمال خلقه أنه جواد بعباء ما يختصه الله به من معارف غيبية لم يأمره بكرتها، وصفه الله بخلق الجود في هذا المجال، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٤].

ففي وصف الله لرسوله بأنه ليس بضنين على الغيب، أي: ليس بشحيح ولا بخيل بعباء المعارف والعلوم الغيبية التي يصطفيه الله بها، وإثبات لصفة جوده صلى الله عليه وسلم بعباء العلم الذي يملك معرفته، ويسمح له ببذله^(٢).

ثالثاً: المال:

المال هو كل ما يمتلك الإنسان من أشياء ينتفع بها، كالذهب والفضة، والخيل، والأنعام، والحرث، وكل مأكول، أو مشروب، أو ملبوس، أو مركوب، أو مسكون، إلى غير ذلك من أشياء يصعب

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ١٩٣/٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٣٩/٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٧٤/٢٧.

إحصاؤها.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالعباء من المال في سبيل الله من أعظم القربات إلى الله عز وجل، ولقد امتدح الله تعالى الذين يجودون بأموالهم في سبيل الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبٍّ وَاللَّهُ يُضَعِّفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثال حبة ألقيت في أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوي جميل فأنبتت في الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فهنا نرى أن الله عز وجل قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئه الله تعالى عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عوداً مستويًا قائماً قد تشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبلة، وفي كل سنبلة مائة حبة.

مبطلات العطاء

الأمور التي تبطل العطاء كثيرة في هذا المبحث، سنتعرف على أهم الأشياء التي تبطل العطاء كالمن والأذى والرياء وغيرها. قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله تعالى وإلى عدم الشكر من الناس، ثم أكد سبحانه هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثلين فقال في أولهما: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾.

والمعنى: يا من آتمتم بالله تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثال المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا ينبغي به رضاء الله ولا ثواب الآخرة؛ لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى؛ لأنه سبحانه شبه حال المتصدق

وفي هذا التشبيه ما فيه من الحضر على العطاء في وجوه الخير، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله^(١).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِ * فَسَنَیْرِهُ لِیُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧].

فأما من أعطى حق الله تعالى، بأن أنفق من ماله في وجوه الخير: كإعتاق الرقاب، ومساعدة المحتاجين واتقى المحارم والمعاصي، وأيقن بالخصلة الحسنى، وهي الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، أو أيقن بالملة الحسنى، وهي ملة الإسلام، أو بالمشوبة الحسنى وهي الجنة، فسنيته للخصلة التي توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال، بأن نوقفه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى السعادة^(٢).

(١) انظر: الكشف، الزمخشري ٣١٠/١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٩١/١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٦، التفسير الوسيط، الزحيلي ٢٨٨٦/٣.

المتصف بهما في إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر^(١).

وأما المثال الثاني فقال سبحانه: ﴿كَمَثِلْ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثال المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحجاً للظهور كمثال حجر أملس لا ينبت شيئاً، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للنظر إليه أنه منتج فتزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته، وتبين للنظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أي شيء عليه.

فالتشبيه في الآية الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائي عارياً من أي شيء يستره، وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره؛ لأن ثوب الرياء يشف دائماً عما تحته،

وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه^(٢). ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الآية الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثال الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبثاً للزرع فتزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾ أي: إن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياءً ومفاخرة لا يقدرُونَ على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا؛ لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله تعالى قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٥٨/١، الكشف والبيان، الثعلبي ٢٥٨/٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣٥٧/١.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٢١/٥، تفسير السمرقندي ١٧٦/١.

المعطي إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثاني: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطي يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه - وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفعه منة على الغير.

الرابع: أن المعطي في الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عني منك، وأنت أبدا تأتي إلي بما يؤلم. إلخ^(٢)

وجاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مراراً قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من

تشبيهه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله، فلماذا كل هذا التشديد في النهي؟ والجواب عن ذلك: أن المن والأذى في الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات.

بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًا؛ لأن الصدقات شرعها الله لتهديب النفوس وتطهير القلوب، ولترابط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير في نفس المعطي بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير في نفس الآخذ شعورًا بالحق والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة^(١).

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال: «وإنما كان المن مذمومًا لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف

(١) انظر: الكشف، الزمخشري ١/ ٣١٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣١١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٧/ ٤٣.

ثمرات العطاء على الفرد والمجتمع

للعطاء فوائد وثمرات فردية واجتماعية عظيمة، ذكر الباحث أهمها:

١. تطهير النفس وتزكيتها من الأنانية.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

أي: أفلح من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقية والسلوكية، وخاب من غمسه في هذه الأدناس، ومن هذه الرذائل المدنسة للنفس الإنسانية الشح والأنانية المفرطة المقيتة، ولذلك سميت الزكاة بهذا الاسم، فهي مطهرة للنفوس من دنس الشح والبخل والأنانية المفرطة، وهي أيضًا مطهرة للمال من الحقوق المتعلقة به للفقراء والمساكين^(٣).

ولما في العطاء من تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْتَظِي ۚ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝﴾ [الليل: ١٤-١٨].

وهذه التزكية لا تكون إلا بمخالفة أهواء النفس وشهواتها، وقضية مخالفة أهواء النفوس يمكن أن تكون بتحويل ذكي فيه

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/٣٧٧.

هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب^(١).

والمنان: هو الذي لا يعطي شيئاً إلا منه كما في رواية، وقيل: أي يمن بما يعطيه لغيره بأنه يذكر ولو لواحد، فالمبالغة غير شرط كأعطيت فلانا كذا وفلان يكره ذلك القول، فهي من المنّة التي هي الاعتداد بالصنعة، وهي إن وقعت في الصدقة أبطلت المثوبة، وإن وقعت في المعروف كدّرت الصنعة^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم إسبال الإزار، رقم ١٠٦، ١٠٢/١.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١١٤/٢، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ١٩٠٩/٥.

وَلَا تَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [المائدة: ٢].

قال القرطبي: «ندب الله تعالى إلى التعاون بالبر، وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته»^(٣)، فالعطاء هو أحد أنواع البر بين الناس.

إن اكتساب العطاء يولد في الفرد شعورًا بأنه جزء من الجماعة وحب التعاون، وليس فردًا منزهًا عنهم إلا في حدود مصالحه ومستوليته الشخصية، فهو بهذا الشعور النبيل يجد نفسه مدفوعًا إلى مشاركتهم في عواطفهم مشاركة وجدانية ومشاركة مادية، فيفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويتألم عندما يتألمون، وينشرح صدره إذا وجدهم منشرحين، ويساهم معهم في الأعمال العامة، ويعين منهم ذا الحاجة بجسمه، أو ماله، أو شفاعته في الحق، أو عواطفه ومشاعره وتعبيراتها^(٤).

ومتى كان هذا المعنى متبادلًا بين أفراد الجماعة استطاعت أن تمثل في واقعها معنى الجسدية الواحدة للجماعة، التي إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح من

ارتقاء وشيء من المشقة عند الصعود، ولكن في هذا الارتقاء الشاق لذات لا يظفر بها من اتبعوا أهواء نفوسهم، المنحدرين إلى أدناس الأخلاق وقبائح السلوك، مما يجدون فيه بعض متع زائلة منغصة بالأكدار والآلام^(١).

٢. يعود الفرد على الإيثار.

ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقْ شَحْنًا لِّنَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن تربية النفوس على حب العطاء إقامة سد واق يمنع الأنفس عن الجنوح الخطير في مجال حب التملك والأثرة، فإنه متى جنحت النفس هذا الجنوح الخطير كان حب التملك غاية بنفسه، وليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع الحياة ومصالحها، وعندئذ يستأثر بالإنسان داء الجمع والمنع، حتى يعيش حياته كلها جماعًا للمال، دون أن ينتفع بما يجمع منه، ثم تأخذ يد المنون فتعزله عن وظيفة حارس صندوق أو خازن مال، ليلقى حسابه العسير على ما جمع ومنع، فلا هو انتفع ولا هو نفع^(٢).

٣. التعاون على البر والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٤٧.

(٤) انظر: ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٤.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٢٦٣.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٧.

تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾
[آل عمران: ٩٢].

فالعطاء بشتى أنواعه - لاسيما العطاء مما يحب الإنسان - يوصله إلى رضا الرحمن تبارك وتعالى، والمعنى: لن تنالوا حقيقة البر، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذي يوصلكم إلى رضا الله، وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين، إلا إذا بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها في سبيل الله (٣).

موضوعات ذات صلة:

الإنفاق، البر، التطوع، الخير، الرزق، الزكاة، العلم، المَنّ

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه شيء، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (١).
أبرز النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عنصرين رئيسين، وهما:

الأول: التواد، أي: التحابب، وهذا العنصر بمثابة الروح التي تسري في الأجساد المادية، فتعقد الصلة التامة بين أعضاء الجسد السارية فيه، حتى يشعر كل عضو بأنه جزء لا يتجزأ من وحدة كلية.

الثاني: التراحم، وهذا العنصر يبرز بالمشاركة الوجدانية والمادية في الآلام والمسرات، والأحزان والأفراح، وهذه المشاركة صورتها العطاء، وحقيقتها الانفعال العاطفي النبيل نحو الآخرين.

وإذا كان التواد بمثابة الروح التي تسري في الأجساد، فإن عنصر التراحم بمثابة الأغذية التي تمد الأجساد بشروط الحياة للمحافظة على بقاء الروح فيها (٢).

٤. التعود على نيل درجة البر ورضا الرحمن عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين، رقم ٢٥٨٦، ١٩٩٩/٤.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٢/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ٣٠٥.